الجزء الثاني

صيدنايا ومكتبة دير الشاغورة

صيدنايا

هي قرية في ظاهر دمشق تبعد عنها نحو خمس ساعات يقطنها قوم من النصارى الروم من الطائفتين بينهم نفر من المسلمين ويبلغ مجموعهم زهاء ٢٢٠٠ نفس . وكانت قديماً ذات شأنٍ خطير كما تدل على ذلك الآثار الباقية فيها والاطلال الشاخصة على مقربةٍ منها بحيث عدَّ فيها بعض الرحّالة في القرن السابع عشر ست عشرة كنيسةً ذكرها باسمائها بقي منها الى اليوم تسع فقط خمس منها للروم الارثوذكس وهي الشاغورة والقديس يوحنا والقديس نقولاوس والقديس جاورجيوس والبربارة . واربع للروم الكاثوليك وهي احيا صوفيا او المجامع والقديسان بطرس وبولس والقديس اندراوس الرسول والقديس موسى الحبشي

والاولى منها اصلح حالاً واحسن بنياناً وهي باقية في الاعمّ الاغلب على هيئتها القديمة خلا كنيسة البربارة فانها جُدّدت سنة ١٨٩١ وظاهرها اشبه بكنائس البروتستان . واما كنائس الروم الكاثوليك فقد تغلب البلى والدثور على اكثرها لاهمالها وقلة العناية بترميمها والاخيرتان منها مقامان حقيران ليس فيهما ما يُعبأ بهِ . وموقع الاولى قرب البيادر والثانية في حارة

النصف اي نصف القرية . ولم ارَ بينها اوثق واوقع اثراً من كنيسة القديسين بطرس وبولس وهي مبنية بحجارة ضخمة ترتفع عن الارض ثلاث درجات . ويتبين من النظر اليها انها كانت في الاصل شبه حصن مربع يُصعَد الى سطحهِ على درج كالولب نظير درج المآذن ولذلك سُمّيت باللولبة . وكلها معقودة بالحجارة ولكنها ضيّقة لا تتجاوز ٢٥ قدماً طولاً و ٢٦ عرضاً . والهيكل فيها صغير ضئيل وامامهُ قنسطاس حقير رثّ رأيت عليهِ ايقونة وقف يوسف فضيل سنة ١٧٧٠ تمثّل القديسين بطرس وبولس

واكبر هذه الكنائس الاربع احيا صوفيا او الجامع وهي الكنيسة الجامعة جدّدها المرحوم البطريرك غريغوريوس يوسف منذ ستّ سنوات وبقيت فيها الى اليوم بقية تزيين لم تنجز . وكان مكان النسآء فيها اولاً في الصحن الشماليّ فرُفع الى اعالي الكنيسة واتُّخذ لهنّ في الجهتين الغربية والشمالية شعريّات كالتي تكون عندنا في دمشق . ومما شاهدتهُ فيها عدة صور قديمة قد تلف بعضها في الحريق ومنها ما هو أحدث عهداً قرأت في بعض منها انها وقف على هيكل مار الياس في كنيسة الجامع وَقفها جرجس عيد وغيرهُ على يد الكاهن كيرلس البيطار الدمشقي سنة ١٧٨٥ او قبل ذلك بقليل . وفي القسم الايمن من هذه الكنيسة درج يُنزَل منها الى معبد صغير فيهِ هيكل يجب ان يكون هيكل مار الياس المذكور في الايقونات الموقوفة وهو اليوم خرِب تهدّم منذ سنتين

وللروم الكاثوليك ايضاً فيما عدا ذلك كنيسة القديس توما وهي في قمة جبل مطلّ على دير الشاغورة يبعد عنهُ نحو نصف ساعة صعدت اليهِ مع

وكيل الكنيسة وشاهدت هنالك آثار دير حسن يُستدَلُّ من بقاياهُ على انهُ كان لهُ بعض الشأن . والكنيسة في وسطهِ قد صبرت على مسّ الدهر ولم يتلف منها الا سقفها وحدهُ ولكنها في اسوإ حال من الإهمال والفقر ولا تزال بعض جدران السور الخارجي ماثلةً الى اليوم . وكان المرحوم البطريرك غريغوريوس قد شرع في رفع ما سقط منها حين همّ باعادة بناء الدير ثم غلب عليهِ الحرص الذي تولاّهُ في غالب مشروعاتهِ فأهمل ما بدأ بهِ واعتاض عنهُ بتجديد كنيسة المجامع السابقة الذكر اذ كانت اقرب متناولاً واقل نفقةً

وكنا حين أردنا زيارة هذا الدير قد تسلقنا اليهِ الجبل على غير هُدًى فلما بلغنا منتصفهُ ابصرنا الوكيل يتقدمنا سائراً على هِينتهِ يتسنَّم الصخور وهو لا يكاد يلتفت يمنةً ولا يسرةً . فتفرّسنا فيهِ في منعطفٍ من الطريق فاذا هو شابّ من اهل القرية شاحب الوجه ربعة القوام تلوح على محياهُ امائر السكينة والقنوت . وقد اقبل على عادتهِ ليوقد المصباح في الكنيسة لان اليوم كان يوم سبت وشرع منذ رقي في الجبل يتلو الصلاة التي يقرأها الكهنة في عشيّ السبوت فكنا نسمعهُ يسردها عن ظهر قلبهِ وهو صاعد امامنا بصوت لم يطرق آذاننا قط اخشع منهُ عندنا في الكنائس . وبعد هنيهة رُفِع لنا الدير فاسرعنا نحوهُ الخطى لنستريح مما المَّ بنا من الإعياء وجلسنا في ظلّ منهُ نسرّح الطرف في ما انبسط لدينا من الاودية والسهول وقد لبست الارض أبهى زخارفها وبرزت تختال في أزهى مطارفها وكانت الشمس قد أفاضت على تلك المشاهد ثوباً من نار بل ذوباً من نضار

واستوت فوق قِمَّة من الطور على عرش من النور تتلقّى دعآء الاطيار وتخشّع الاشجار وما برحت مترجّحةً في مركبها سابحةً في موكبها حتى ابصرت طلائع الغسق وقد دبّ اليها من كثَب واقبل ينسل نحوها من كل حدَب فجمعت اثقالها وكفكفت اذيالها ثم حيّت بالحاجب المقرون ولاذت بالحجاب متوارية عن العيون فبينما نحن ننظر اليها نظرة الوداع وقد انقبضت الطبيعة لفراقها واستولى عليها الجمود فلا يسيل فيها غير عيون المآء ولا يخفق الا قلب الهوآء وانقطعت منها الاصوات والحركات فلا نغمة طائر ولا نأمة سائر اذ سمعنا فوقنا رنّة صائح تلتها انّة نائح فقمنا نعدو سراعاً الى الدير فاذا الوكيل واقف في الكنيسة يصلي ويستغيث بصوتٍ قد ملأت هيبتهُ صدر الفضآء والحانٍ كانت تتلقاها الملائكة فترفعها الى مليك السمآء فتأملنا وجههُ الشاحب بين دخان البخور وشعاع النور فخلناهُ موسى الكليم قام يناجي ربهُ في الطور او احد نسّاك الكهوف المجاورة وقد نُشروا من القبور ووقفنا وقفة الذاهل ونحن لا نكاد نصدق ان يكون مثلهُ على غضاضة إهابهِ ونَزَق شبابهِ هو المتولي لمثل هذه العبادات في عصرٍ فترت فيهِ عزائم خدمة الدين وفشا الجهل والتعصب بين معظم الكهنة الشرقيين واستحوذ حب الدينار والدنيا على اكثر النفوس وسارت خمرة الرئاسة والسيادة في كل الرؤوس فلا تكاد ترى الا ساعياً في اطماعهِ مقبلاً على شقاقهِ ونزاعهِ ولا تلقى الا معرضاً عن واجباتهِ متهالكاً ورآء ملذاتهِ وكنت في الصباح قد مررت باحدهم في مجلس من الزوّار قد اجتمعوا على معاقرة الكؤوس ومنادمة

بعض الشموس وهو فيما بينهم جالس يتغنّى بصوتٍ لم يُخلَق للتسبيح وفمٍ لم يُختَم عليه بأدب المسيح فبُهِتُّ من تهتّك مثله وتهوّره في الجهالات وعلمت حينئذٍ كيف يباع شرف الكهنوت في سوق الشهوات وتمثّل لي قول بعض المتقدمين كل غناءٍ يخرج من بين شاربين ولحية غير مستحسن فقلت لا سيما اذا كانت اللحية لحية كاهنٍ قد نذر عفّتهُ وتقواه وخرجت وانا اردّد انّا لله وانّا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله

وانما توفّر في صيدنايا مثل هذا العدد من الكنائس لما كان لها من الاهمية في ما سلف ولا سيما انها كانت معدودةً في جملة اسقفيات دمشق كرسيّ ابرشية فينيقية لبنان . وقد عُرفت قديماً باسم دانافا كما نبَّه على ذلك الشماس بولس الحلبي في كتابهِ تاريخ البطاركة الانطاكيين وذكر ان اسقفها كوشاناس كان في المجمع الرابع نقلاً عن كتاب روميّ قديم جدًّا استخرجهُ الى العربية . وحكى ايضاً في كتابهِ سفرة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية في اثناء كلامهِ عن البطاركة الانطاكيين ان البطريرك دروثاوس الذي تمّ في ايامهِ مجمع فلورنسا وتوفي سنة ١٤٥١ كان قبلاً اسقف صيدنايا وقام من بعدهِ مرقص اسقفها ايضاً جرى انتخابهُ في مجمع من اساقفة الكرسيّ ومطارنتهِ كان بينهم ميخائيل اسقف الزبداني ويواكيم اسقف ببرود ومكاريوس اسقف قارة ودعي ميخائيل وذلك في عيد رفع الصليب يوم الثلاثاء من السنة نفسها

وممن خلف هذين البطريركين على كرسي صيدنايا في خلال القرن السابع عشر ثلاثة اساقفة عثرت على شيء من اخبارهم وهم سمعان ويواصف

ولاونديوس حضر الاول المجمع الملتئم سنة ١٦٢٧ في بلدة الراس للفصل بين اغناطيوس عطية وكيرلس الدباس المتنازعين على البطريركية . وشهدهُ معهُ كذلك في جملة أحبار الكنيسة الانطاكية يواصف اسقف قارة وهو الذي أضيفت اليهِ في ما بعد اسقفية صيدنايا ايضاً على ما قرأتهُ في ذيل نسخة خطٍّ لهُ من كتاب القنداق تعريب البطريرك مكاريوس الحلبي حينما كان مطراناً في حلب سنة ١٦٣٣ وقفت عليها في مكتبة المرحوم المطران يوسف داود في دمشق وهذا نص ما جاء فيها « كان النجاز من نساخة هذا القنداق المبارك نهار الجمعة اول شهر كانون الثاني سنة سبعة آلاف ومائة واربعة وخمسين لابينا آدم عليهِ السلام[1] وذلك بيد الحقير الفقير يواصف باسم مطران صيدنايا وقارا غفر الله تعالى لهُ ولوالديهِ .... » ولكن يجب ان تكون هذه الاضافة قد تمت بعد سنة ١٦٣١ لانهُ في هذا التاريخ كان اسقفاً على قارة وحدها كما يؤخذ ايضاً من نسخةٍ اخرى لهُ من الكتاب نفسهِ محفوظة عندي فرغ من خطها نهار الاربعآء من شهر تشرين الثاني سنة ٧١٣٩ لآدم ودعا نفسهُ في خاتمتها « الحقير في رؤسآء الكهنة يواصف خادم كرسي مدينة قارا ابن المرحوم الحاج نعمة من معمورة بزيزا من معاملة طرابلس » وفي دير كرسيّهِ هذا الجديد صادفهُ ملاتيوس مطران حلب لما قدم بدعوة من اهل دمشق وفي معيتهِ ملاتيوس مطران حماة وفيلوثاوس اسقف حمص ليتولى البطريركية الانطاكية خلفاً للبطريرك افتيموس الصاقسي المتوفَّى . ولا بد ان يواصف صحبهُ ايضاً الى دمشق ليشترك في رسامتهِ التي

---

(١) اي سنة ١٦٤٦ المسيح

احتُفل بها في ١٢ من كانون الاول سنة ١٦٤٧ واما لاونديوس فهو احد الاساقفة الاربعة الذين عقدوا البطريركية سنة ١٦٧٣ للخوري قسطنطين ابن الشماس بولس الحلبي ودعوهُ كيرلس وهو الخامس بهذا الاسم ولكنهُ لم يلبث فيما بعد ان انحرف عنهُ ومالأ منازعيهِ من الاساقفة على خلعهِ واختيار البطريرك اثناسيوس في مكانهِ وذلك يوم الاربعاء في ٢٥ من آب سنة ١٦٨٦

واشهر من تولى هذه الاسقفية في اوائل القرن الماضي السيد الطاهر الابرّ ناوفيطس نصري الحلبي رُسم عليها في دمشق في الكنيسة المريمية سنة ١٧٠٥ من يد البطريرك كيرلس الخامس السابق الذكر وذلك بسعي افتيموس الصيفي رئيس اساقفة صور وصيدا المعروف بقفة العلم[1] وفي هذه

---

(١) كذا ورد في تاريخ الرهبنة المخلصية للاب كيرلس الحداد وقد عدّ ناوفيطوس في جملة الاساقفة الذين نبغوا في دير المخلص وذكر عنهُ انهُ « كان متحداً برهبانية المخلص .... مجاهراً بانتشار الكثلكة والرهبانية المخلصية معاً ومحباً لها مجاهداً في خيرها ونموها » وخالفهُ في ذلك الارشمندريت الكسيوس الكاتب فذهب الى انهُ كان « ينتهي الى الرهبانية الباسيلية من مجمع دير القديس يوحنا الصابغ الذي قرب الشوير في لبنان » (المشرق السنة الثالثة ص ١٠٦٨) واثبت دعواه هذه بما ورد في فاتحة كتاب فرائض الرهبنة المطبوع في رومة سنة ١٧٥٨ وهو الصحيح . ولكنهُ نسب اليهِ مع ذلك انشاء دير النبي الياس حذاء رشميا في لبنان واحتج في رسالة لهُ لصحة هذه النسبة بما قرأهُ في بعض الاوراق ومختصر تاريخ الرهبنة المشار اليها من ان الدير المذكور كان ملك السيد ناوفيطوس نصري وانهُ فيما يظهر كان يقطنهُ مع كاهنهِ الحلبي الاب اغناطيوس قندلفت . ولما اضطرَّ الى مفارقتهِ مرةً اوصى الرهبان المخلصيين بحراستهِ فاصلحوا فيهِ اشياء ورمموا اخرى . وفي سنة ١٧٢٩ عقد النية على السفر الى رومة فارسل واستدعى من الرهبانية الشويرية الاب جناديوس والشماس باخوميوس واقامهما في الدير بعد ان اشترط على رئيسهما ان يعاد لهُ ملكهُ اذا رجع من رحلتهِ .

الكنيسة نفسها رسم هو سنة ١٧٢٤ البطريرك كيرلس طاناس اول بطاركة الروم الكاثوليك المستقلين وساهمهُ في ذلك باسيليوس فينان اسقف بانياس وافتيموس الفاضل اسقف الفرزل

والظاهر ان سلطتهُ كانت مقتصرة على رعيتهِ وكنائسهِ خلا الدير فانهُ كان من خاصّ ابرشيـة البطريركية كما هو جارٍ لهذا العهد عند الروم الارثوذكس وانما كان لهُ عليهِ النظر فقط وبسبب ذلك كانت واردات الاسقفية قليلة لا تفي بحاجاتهـا . ففي سنة ١٧٢٤ رأى البطريرك اثناسيوس الخامس اسعافاً لهُ ان يضمّ الى عهدتهِ ابرشية معلولا بعد هجرة اسقفها الى بلاد الكرج فاصدر في ذلك منشوراً لا بأس ان اورد هنا نصّهُ بتمامهِ نظراً لفائدتهِ التاريخية وخفآئهِ قبل اليوم . عثرتُ عليهِ في كتابٍ مخطوط لنعمة ابن الخوري توما الحلبي دعاهُ عجالة راكب الطريق لمن رضي بتقليد التلفيق والمنشور من انشآئهِ عن لسان البطريرك المذكور قال[1]

ولكن البطريرك وهو كيرلس طاناس يومئذٍ لم يلبث حين بلغهُ خبر وفاتهِ في رومة ان نزع الدير من الرهبان الشويريين وسلمهُ للمخلصيين بدعوى ان لهم عليهِ ديوناً وانهم رمموهُ ... والذي في تاريخ الاب كيراس الحداد الآنف الذكر ان باني هذا الدير هو الخوري ميخائيل العرّاج المدفون والمصوَّر فيهِ وهو الاب العام الرابع الذي تقلد رئاسة الرهبنة المخلصية منذ ١٧٥٥ الى ١٧٦٨ . وهذا نص ما كتب عنـهُ في ترجمتهِ قال « لما تسلم زمام الرئاسة .... ابتاع اولاً عقاراً في قرية رشميا و بنى ديراً على اسم القديس الياس النبي » واضاف الى ذلك فيما بعد انهُ « كان يفتقد الديارة القائمة حديثاً لاجل تكميلهـا خصوصاً دير رشميا الذي كان شارعاً بقيام كنيستهِ التي تمت بكل اتقان سنة ١٧٨٨ » وهو القول الشائع المشهور اليوم

(١) اوقفني على هذا الكتاب حضرة الشاعر العصري قسطاكي بك الحمصي من

المجد لله دائماً

اثناسيوس برحمة الله تعالى البطريرك الانطاكي وسائر المشرق

وبعد فليعلم المطّلعون على منشورنا هذا من اخوتنا المطارنة المحترمين واولادنا رؤساء الديارة المكرمين والكهنة الموقرين وجميع الاكليروس

اعيان مدينة حلب وهو مخطوط في ما يقرب من ٢٨٠ صفحة على قطع كامل مقسوم الى قسمين جمعت فيهما منشورات المؤلف ومنظوماتهُ منقولةً كما صرّح في مقدمتها عن مسوّداتها الاصلية حسبما انتهت اليه دون نسق ولا ترتيب ولذلك كان كثير منها غفلاً من التاريخ وبعض اسماء الاعلام . والمنشورات منها عبارة عن رسائل وعرائض انشأها في اغراض شتى عن لسانه او لسان غيره ممن كان يستكتبهُ في حلب من طائفة الروم او بقية الطوائف على اختلاف نحلها تتخللها صكوك شرعية وعقود تجارية وما اشبه ذلك من العهود المتعارفة بين الناس مما يدل على سعة معارف الكاتب وخبرة قلمه واحاطته باصناف المعاملات

وبين هذه الرسائل والانشاءات ما هو موجه الى الاب الاقدس ومجمع الكرادلة وسائر رجال الكهنوت وبعض السفراء والوزراء ووجهاء المسلمين واكثرها في اخبار طائفته وحوادثها في النصف الاول من القرن الثامن عشر على عهد البطريرك اثناسيوس الخامس وخلفائه من بعده الى اوائل ولاية البطريرك مكسيموس الحكيم وخاصةً ما يتعلق منها باعمال سلفستروس القبرصي البطريرك المشهور اذ كان للمؤلف معرفة به وصداقة حينما كان شماساً عند معلمه البطريرك اثناسيوس ولذلك جرت بينهما مراسلات استوفى فيها وفي ما كتبهُ في معناها انباء الاضطهاد الفظيع الذي اثارهُ هذا الرجل ظلماً وعدواناً على ملة الروم الكاثوليك في حلب بحيث ان من طالع هذا المجموع يقف فيه على تفصيل الاضطهاد الحلبي الى زمن المطران فيليمون الذي انتخب فيما بعد بطريركاً على انطاكية . وقد اضاف اليه مقتنيه ايضاً بعض صفحات في آخره تتصل بتاريخ الطائفة في جملتها حكاية الاضطهاد الثاني الذي حدث في حلب سنة ١٨١٨ وقتل فيه عدة من اعيانها باغراء جراسيموس مطران الروم الارثوذكس

وفضلاً عن هذه الفوائد كلها ففي الكتاب بعض فقرات واشارات اذا تأملها المؤرخ

الورعين وباقي المسيحيين الكاثوليكيين الكائنين في الابرشية الانطاكية اجمعين بارك الرب الاله عليهم اتم البركات السماوية امين

اننا اذ قد رأينا ان الاخ كير فلان مطران معلولا قد قطن في بلاد الكرج لعجزهِ عن الرجوع الى كرسيهِ وارسلنا استدعيناهُ اولاً بواسطة مكاتيبنا ثم بواسطة قاصدنا بابا مكاريوس البابا سي الذي خولناهُ درجة

تبين منها طرفاً من اخلاق البطريرك اثناسيوس الخامس الذي تمَّ من بعدهِ تميز طائفتي الروم وعلم بعض الاسباب التي الجأتهُ الى هذا التصرف الذي أُنكر عليهِ ونُسب من اجله الى التقلب والتلون . ولكنّ صفو هذه المطالعات مكدَّر بما يعتور عبارات الكتاب باسرهِ من التصحيف والتحريف خلا ما في بعض صفحاتهِ من النقص والبياض حتى لا تكاد تسلم فيه ورقة واحدة من عده غلطات وسقوط بعض كلمات او جمل برمتها ولا سيما في المنظومات فان اكثرها مختل الوزن مضطرب القافية ركيك التعبير بحيث لم استطع ان انتقي منها ابياتاً حسنة أوردها شاهداً على منزلة المؤلف في الكتابة والنظم ولا شك ان اغلبها وارد من جهل الناسخ وسوء سمعهِ وفهمهِ كما يظهر من اعتبار كيفيه رسمهِ للحروف وتصويرهِ لبعض الالفاظ كما تُقرأ لا كما تكتب مما يجب ان تكون قد تنزهت عنهُ النسخة الاصلية

واما تاريخ هذا الكتاب فقد ذكر في آخر المقدمة انهُ تمّ في اواسط شهر محرم سنة ١١٧٣ هجرية (١٧٥٩ م) جمعهُ لاولادهِ ليكون لهم دستوراً يقتدون بهِ فيما يحتاجون اليهِ من نظائر هذه الكتابات . على ان فيهِ ما يتصل عهدهُ بما ورآء هذا التاريخ ايضاً كالحاشية الواردة في ذيل الكتاب المرسل الى الاب الاقدس فقد جآء في خاتمتها ذكر يوم احد الشعانين اول نيسان سنة ١٧٦٧ ولا يخلو ان تكون امثال هذه الملحقات قد أُضيفت على المجموع بعد ايام المؤلف لان في بعض العبارات ما يشعر ان الناقل غيرهُ . ومما يشهد بذلك ورود سنة ١٨١٢ في بعض هذه الحواشي وهي ولاشك مما اضافهُ احد النساخ لانهُ لا يصدق ان يكون المؤلف قد ادرك مثل هذا العمر

وقد كان يمكن تحقيق هذه المزيدات لو عُرفت ترجمة الكاتب وسنة وفاتهِ ولكن غاية ما يستفاد من مطالعة كتابهِ انهُ عاش في بدء القرن الثامن عشر وادرك ما بعد

مطرانية بعلبك ولم يحضر بل ارسل استعذر انهُ لضعفهِ وشيخوختهِ لا يقدر على ركوب الطريق وتأكدنا انهُ لا ينبغي بل لا يجوز ان نهمل رعايا ابرشيتهِ المرقومة بغير راعٍ يسوس احوالهم ويدبر امورهم ويرشدهم الى مناهج خلاصهم لئلا نُطالب بذلك ممن قلَّدنا زمام رعاية امور الابرشية الانطاكية جميعها واذ قد وجدنا ناقل منشور البركة الاخ كير ناوفيطس مطران صيدنايا المكرم

منتصفهِ • وكان فيما يُرى كاتباً عند البطريرك اثناسيوس ومطارنة حلب من بعدهِ رفيع المنزلة لديهم معروف المكانة بين الناس يرتزق من كتابتهِ لهم مقرباً الى بعض الوزراء واعيان المسلمين كما تدل على ذلك بعض رسائلهِ • وكان لهُ معرفة بشعراء زمانهِ كالخوري نقولا الصائغ والمطران جرمانوس فرحات وغيرهما • وفي ديوانهِ رسالة بعث بها الى المطران المذكور حينما كان قساً لبنانياً في دير ماري البشع كتبها نظماً ونثراً اذا أخذ كل منهما على حدتهِ كان رسالةً مستقلةً فاجابهُ عنها المطران بقصيدة اولها

أسلافُ سلامكم ام خطابُ ورحيقٌ مزاجهُ ام عتابُ

وممن تعرَّف بهم ايضاً الشيخ نوفل الخازن قنصل فرنسا في بيروت عند مرورهِ بها في احد اسفارهِ • ولكن لم تطل مدة اجتماعهِ به لاضطرارهِ الى الرجوع حالاً الى حلب لتلافي ما نجم فيها من الشقاق في اثناء غيابهِ كما قال في ذيل كتاب كتبهُ الى احد اصحابهِ في هذا الصدد • وفي هذه الرحلة غالباً زار دير صيدنايا وسجد فيه لايقونة العذراء ونظم في مديحها بعض القصائد كما اشرنا الى ذلك فيما تقدم

وكان ساكناً في حلب في محلة الصليبة في بيت صغير للوقف استأجرهُ من البطريرك اثناسيوس بمقدار ١٤٥ غرشاً عن ثلاث سنوات على ما هو مذكور في صك الايجار الذي اورد نصهُ في مجموعهِ • وكان لهُ بنون وبنات يعرف منهم توما وانطون وجبرائيل غير انهُ لم يُمتع بصحبتهم طويلاً لان توما تراكمت عليه الديون في حلب فخرج منها هارباً في رجب سنة ١١٦٥ بعد ان عجز عن وفائها وسار الى مصر ماراً باللاذقية ولهُ في فراقهِ ابيات ووصيات • ثم أصيب انطون وجبرائيل بمرض عضال أودى بحياة الثاني فبكاهُ والدهُ بكاءً مرًّا وندبهُ بمراث طويلة يتفطر منها الفؤاد حزناً وغماً واعتزل من بعدهِ عن الناس منقطعاً الى الشكوى والعبادة ولم يُسرَّ عنهُ قليلاً الا عند ما تمثل انطون من

كافياً لتدبير رعايا ايرشيتهِ ورعايا هذه الابرشية فقلدناهُ لاجل خلاص ذمتنا زمام رعاية هذه الابرشية المرقومة وجعلناها الحاقاً لابرشيتهِ ليتصرف في رعايتها وتدبيرها بالوجه المرضي لجلالهِ تعالى واذ قد اقتبل هذه الوظيفة من حقارتنا فيجب على الرعايا المذكورين الكائنين في ابرشية معلولا ان يقبلوهُ بالاكرام اللائق بدرجة رئاسة الكهنوت ويطيعوهُ في كل ما يأمرهم بهِ

مرضه وأفلت من الخطر

ويؤخذ من ابيات لهُ قالها يشكو فيها توارد الخطوب عليه ان الدهر لم يقنع منهُ بهذا القدر من البلاء بل اصابهُ ايضاً بضيقة شديدة انتزفت ما بين يديهِ ورمتهُ بالفقر والعجز حتى اضطر الى بيع كتبهِ ليستعين بثمنها على سد عوزهِ ولهُ في ذلك ايضاً قصيدة اولها

يارب قد بعت كتبي فحسبي الذل حسبي

ومع ذلك فقد عرف كيف يتلقى هذه المحن كلها بما يجدر بها من الصبر والتجلد ولم يستسلم من اجلها الى الجزع والقنوط لما كان متصفاً بهِ من الحزم والرزانة والتقوى وحسن الايمان . ويكفي شاهداً على ذلك كتابهُ الذي كتبهُ الى ابنهِ توما في اللاذقية حين خرج فاراً من حلب فانهُ طافح بالمواعظ والوصايا الدالة على ثبات جنانهِ وشدة ورعهِ وكمال دينهِ وعقلهِ ولهُ ايضاً رسالة اخرى اودعها نصائح شتى لاولادهِ في سبعة فصول لتكون اماماً لهم في الحضر والسفر دعاها خلاصة حب الفؤاد بنصح الآباء للاولاد يستشف منها مقدار حكمة هذا الرجل وفضل حنكتهِ وعلمهِ وحسن ديانتهِ واعتقادهِ

ومما اشتهر بهِ خاصةً شدة تعبدهِ للسيدة البتول فانهُ كان مغرماً بمحبتها مولعاً بذكرها يستنجد بها في كل حادث وكارث واشعارهُ مفعمة بوصفها لايكاد يخلو قول منها عن مديح لها او ابتهال اليها ونظراً لهذا التعلق الشديد والشغف المفرط لم يكن يكتفي بكل ما في كنيستهِ من الصلوات المشهورة للعذراء بل كان يتلو لها ايضاً بعض الصلوات الغربية كصلاة الوردية « الشائع فضلها في كل البرية » كما قال في رسالة كتبها الى تادرس بن عازار حجى ضمنها نصائح لهُ في معنى ترقيهِ الى رتبة البازركان وفيها يوصيهِ بالتقوى وايثار طاعة الله والمواظبة على الاعتراف والتقرب ويغريهِ خاصة بالتعبد «لسيدة الانام اشرف العالمين » وتلاوة خدمتها التي سلمهُ اياها حينما كان عندهُ وكتبها

وينهاهم عنهُ من الاوامر الناموسية التي تقلدناها من الرسل القديسين وخلفآئهم الآباء الالهيين ابتغاءً لقول الرسول العظيم القائل اخضعوا لمدبريكم واطيعوهم لانهم يسهرون عن انفسكم كمن يعطون عنكم جواباً . وسبيلهُ هو ان يبذل جهدهُ في تدبيرهم وسياستهم وسياقتهم الى مناهج خلاص انفسهم اتباعاً لقولهِ تعالى الراعي الصالح يبذل نفسهُ عن الخراف ولأن سيدنا يسوع المسيح رئيس الاحبار العظيم سيسألهُ عن كل نفس من رعيتهِ المذكورة نتضرع اليهِ عزّ اسمهُ ان يؤهلهُ بنعمتهِ الفائقة الى خلاص نفسهِ ونفس رعيتهِ المذكورة جميعاً . هذا واذ كنا حين ذهبنا الى دير سيدتنا مريم العذرآء والدة الاله المعروف بدير صيدنايا ورأينا انخرام نظامهِ وتبلبل احوال ساكنيهِ وطروق العوامّ والامم الغريبة اليهِ وانعدام وجود حقيقة الرهبانية فيهِ وعلمنا اننا ملزومين بضبط ترتيبهِ حيث انهُ من خاصّ ابرشيتنا واحتراماً لصاحبتهِ الفائق قدسها سيدتنا الطوباوية فرتبنا لهُ قانوناً مشتركاً لمعاشهِ تقتدي بهِ الراهبات القاطنات فيهِ مع رئيستهنّ بمناظرة حضرة المطران ونظمناهُ بالممكن ومنعنا عنهُ سطوة الخوارج ودخول العوامّ وغير ذلك مما

لهُ بقلمه يعني بها صلاة الوردية المذكورة . واما زين لهُ مثل هذا التساهل مع ماعرف بهِ من التمسك بطقوس الروم واشتهر عنهُ من صحبة رجال الكهنوت تيقنهُ ان مثل هذه العبادات المتخذة ليست في شيءٍ من الطقس ولا تقدح شيئاً في الطقس خلافاً لما يتوهمهُ اكثر اصحابنا اليوم من ابنآء الكنيسة اليونانية الذين يدخلون في الطقس ماليس منهُ ويعدون كل لفظ لم ينطق به آباؤهم بدعة يجب التورع منها في حين ان في بعض مصطلحاتهم الجارية عندهم في هذا الاوان ماهو احق بالاطراح لمناقضته تقليد كنيستهم كما اوضح شيئاً من ذلك صاحب رسالة تحقيق الاماني لذوي الطقس اليوناني

يؤذي الراهبات المتعبدات ويبلبل احوال نظام سيرتهنّ وجعلنا المطران المذكور وكيلاً وناظراً على حفظ ما رتّبنا وعلى التيقظ لثبات القانون الذي حددناهُ غير اننا الآن لما تأملنا ورأينا ان هذا الأَرَب لا يتمّ ويكمل على المراد الاَّ بزيادة ايراد ما يخص المتوكل المذكور ليستعين بهِ على القيام بأود هذا المطلوب من قبيل ان ايراد الدير لا يوفي ذلك فسمحنا للأخ المطران كير ناوفيطس الموما اليهِ بنورية ابرشيتهِ التي هي صيدنايا ونورية معلولا التي الحقناها بابرشيتهِ وقلدناهُ زمام رعايتها لكي يقوى بالنوريتين المرقومتين على حفظ وترتيب القانون والنظام الذي حددناهُ وحتمنا بثباتهِ في الدير المذكور ودوامهِ على ممرّ الدهور

فليس لاحد سلطان ولا دستور ان يعارضهُ بذلك اصلاً وقطعاً ولإثبات هذا الالحاق المسطور والسماح بهاتين النوريتين المرقومتين فقد منحناهُ هذا المنشور سنداً بيدهِ لكي يكون متصرفاً من غير مانع بوجهٍ من الوجوه ابداً. تحريراً في ٢٣ تموز سنة ١٧٢٤

وفي غداة هذا التاريخ انتقل الى رحمة ربهِ البطريرك اثناسيوس صاحب هذا المنشور ونشأت بعد وفاتهِ الحوادث المعروفة التي تمَّ على اثرها تميُّز طائفتي الروم واقبل البطريرك سلفستروس القبرصي مجرداً سيف السطوة والاضطهاد وجعل يتنقل بين حلب ودمشق يتتبع رجال الكثلكة بالقتل والنفي والنهب فقرّ من بين يديهِ البطريرك كيرلس طاناس وبعض اساقفتهِ ثم وضع يدهُ على الديارات والكنائس وعقد اسقفية صيدنايا لبعض اشياعه وسيَّرهُ بامر من اسمعيل باشا العظم حاكم دمشق ليفتك بكل من يناوئهُ

فيها . فلما درى بهِ اسقفها الكاثوليكي السيد ناوفيطس السابق الذكر حرَّض رعيتهُ وراهبات الدير على الثبات والتجلد واقام ينتظر قدومهُ ليدافعهُ عن كنيستهِ وايمانهِ . غير ان رعيتهُ أَبت اشفاقاً عليهِ ان تتركهُ عرضةً للخطب الملمّ فاضطر ان يفارقها على كرهٍ منهُ وسار الى دير المخلص وفي رفقتهِ راهبة اسمها تقلا من راهبات دير صيدنايا مصحوبة بعريضةٍ من الرئيسة والراهبات لبطريركهنّ الشرعيّ السيد كيرلس طاناس يسألنهُ فيها العناية بامرهنّ والوقاية من الفتنة الثائرة . فامر السيد باسيليوس فينان اسقف بانياس ان يهتم بشأنهنّ مع رئيس الدير وشيوخ الرهبانية فابتاع للراهبات ارضاً في قرية برتا من قرى ابرشيتهِ في اقليم التفاح من جبل لبنان وابتنى هنالك ديراً وضع فيهِ الراهبة تقلا القادمة من صيدنايا ثم نقلهنّ سنة ١٧٥٠ الى مكانهنّ المعروف اليوم بدير سيدة البشارة

واما السيد ناوفيطس اسقف صيدنايا فانهُ لما رأى الحال تتفاقم سوءًا ويئس من الرجوع الى كرسيّهِ سار الى ديار بكر ليدعو الناس الى الكثلكة وظل فيها منقطعاً الى الوعظ والارشاد حتى انتابتهُ علة اضطرتهُ الى الرجوع فاختار العزلة والانفراد وبعد ان استقال من ابرشيتهِ هاجر الى رومة حيث اكرم البابا بناد كتوس الثالث عشر مثواهُ وافرد لهُ مكاناً لسكناهُ ورزقاً لمعاشهِ فاقام عندهُ منعكفاً على العبادة والصلاح الى ان قضى نحبهُ في ٢٤ من شباط سنة ١٧٣١ على اثر صدمة عربة دهمتهُ فأودت بحياتهِ كما نبَّه على ذلك صاحب كتاب عجالة راكب الطريق المشار اليهِ آنفاً . وقد ذكر وفاتهُ ايضاً كثيرون غيرهُ ونسبوا اليهِ بعد موتهِ بعض الخوارق والكرامات

حتى لم يتمالك احدهم وهو القس ارسانيوس كرامة الحمصي ان عدَّهُ من جملة القديسين الشرقيين في تصنيفهِ الذي دعاهُ رسالة البراهين الانجيلية في حقوق الكنيسة البطرسية [1]

ثم خلف ناوفيطس على اسقفية صيدنايا السيد اكليمنضوس الحلبي من رهبان دير المخلص رسمهُ البطريرك كيرلس طاناس سنة ١٧٣١ . ولما عاد البطريرك سلفستروس القبرصي الى اضطهاد الكاثوليكيين واستعان بمحافظ دمشق اسعد باشا العظم على تدميرهم واستئصال شأفتهم هرب السيد اكليمنضوس عن كرسيهِ وعادَ ببطريركهِ في دير المخلص فاقطعهُ بعض قرى في ابرشية عكاء ليعيش من ريعها ويهتم برعيتها ودعاهُ اسقف فلسطين . وآخر مجمع شهدهُ معهُ مجمع دير المخلص سنة ١٧٥٩ (القائد الامين) ولما ادركتهُ الوفاة سنة ١٧٨٤ في دير القمر كان شيخاً طاعناً في سنهِ قد ناهز الخامسة والتسعين ودُفِن في كنيسة النبي الياس للروم الكاثوليكيين . وهو آخر من وجدتهُ تبوّأ كرسيّ صيدنايا . واما بعدهُ ففي

---

(١) وممن كتب عنهُ ايضاً حضرة الاب الفاضل الارشمندريت الكسيوس الكاتب نائب الرهبنة الشويرية في رومة في مقالة لهُ نشرها في مجلة المشرق (السنة الثالثة ص ١٠٦٨ — ١٠٧٢) وضمنها كل ما اتصل بهِ من ترجمتهِ واخبارهِ منذ تسقيفهِ على صيدنايا واورد فيها تفصيل وفاتهِ منقولاً بنصهِ اللاتيني عن سجل موتى كنيسة مدرسة نشر الايمان التي كان قد اختارها لدفنهِ . وبعد ان أيد بهذا النقل وامثالهِ ما اشتهر عنه من الصلاح والكرامة ذكر انه رفع عريضة الى المجمع المقدس التمس فيها الفحص عن جسم ناوفيطس وتحقيق ما عزي اليه من الخوارق توصلاً الى تثبيت براءتهِ وهي مأثرة لحضرة الاب تشهد بما عندهُ من الرغبة الشديدة في التنويه بذكر رهبانيته والحرص على احياء مفاخر طائفتهِ

أوائل القرن الحاضر أُسنِدت رعايتها الى أساقفة بعلبك في جملة ما أُسنِد اليهم من أبرشية حمص وبيرود وما جاورهما وبقيت في ولايتهم الى عهد السيد اصطفان عبيد . ولما تنزل عنها رسم البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤٩ الخوري ميخائيل عطا على حمص وبيرود واستبقى صيدنايا مع قريتي المعرة والمعرونة وألحقها بالكرسي البطريركي كما لا تزال الى هذا الاوان

واما عند الروم الارثودكس فلم أقف على أسماء من تولى منهم أسقفية صيدنايا منذ زمن بطريركهم سلفستروس القبرصي ما خلا اني وجدت في التربة ظاهر دمشق مدفناً قد نقشت عليه الكتابة الآتية « قد اهتم بهذا المدفن من احسان المسيحيين وجعله وقفاً باسم طغمة الرهبان المتوحدين الحقير في رؤساء الكهنة برنابا مطران صيدنايا وكيل البطريرك الانطاكي وذلك في شهر ايلول سنة ١٧٧٩ » ثم رأيت له ايضاً في كنيسة دير الشاغورة كرسياً اسقفياً اصطنعه لنفسه سنة ١٧٨١ تعلوه صورة العذراء والطفل وفوقها ايقونة القديس جاورجيوس وقف البطريرك الانطاكي سلفستروس سنة ١٧٦٥

وفيما بعد ضُمّت اسقفية صيدنايا عندهم الى اسقفية زحلة ومعلولا واصبح في هذا العهد الكرسيّ واحداً

مكتبة دير الشاغورة

وأجل الآثار الباقية الى اليوم في صيدنايا ديرها المشهور المعروف بدير الشاغورة نسبةً الى أيقونة له تمثل العذراء . ورأيت في كتاب كتبه في

٢٧ من صفر سنة ١٢٣٤ الروم الكاثوليك في دمشق الى الخوري سابا الكاتب ان اسمها كان ايضاً الشاهورة بالهآء وهذا نص ماقيل فيهِ « واما سبب تغليظ خاطر منلا افندي عليهِ (على البطريرك سيرافيم) هوالتجديد الواقع بدير صيدنايا في حجرة الشاهورة من تبليط وزينة وأما عمار الاوَد ومرمّة الدير فذاك بموجب بيورلدي من المرحوم افنديناكنج يوسف باشا وبموجب مراسلة من الشرع الشريف فجناب منلا افندي تعلل بخصوص التجديد الواقع في حجرة الشاهورة بحيث مافيهِ اذن » وهذه الايقونة فيما زعموا من رسم القديس لوقا أتى بها بعض الرهبان من اورشليم وقد اشتهر الدير بشهرتها وترامى ذكرهُ في الاقطار على اثر ما نُسِب اليها من المعجزات فكان مقصداً للزوار يحجون اليهِ من كل صقع في جماهير شتى ذكر السائح الالماني أُلريك لِمانّ انهُ كان يجتمع منها في ثامن ايلول وهو عيد ميلاد العذرآء نحو الخمسين الفاً في اخلاط من النصارى كانوا يتعاطون في اجتماعهم كل قبيح ويرتكبون اصناف المنكرات كما تُشاهد امثال ذلك اليوم . وكانوا يحجون في هذا العيد خاصةً ليشاهدوا فيما قيل الزيت العجيب الذي كان يسيل من ايقونة السيدة [1] . ولذلك غلبت على هذا العيد تسمية « حج السيدة » المعروف بها الى هذا العهد . ومن بعض من زار الدير في القرن الماضي جرمانس فرحات الماروني ونعمة ابن الخوري توما الحلبي الرومي الملكي ولكلٍّ منهما في مدح الحصن وعذرآئهِ اشعار مثبتة في ديوانيهما

وهذا الدير قديم جدًّا قيل انهُ بُني بامر الملك يوستنيانوس في اوائل

---

(١) طالع مجلة الشرق المسيحي السنة الرابعة ١٨٩٩ ص ٨٠

القرن السادس للميلاد وهو اليوم خاصّ بالروم الارثوذكس صار اليهم في جملة ما استولوا عليهِ من الاديار على عهد بطريركهم سلفستروس القبرصي كما تقدم التنبيه عليهِ . وكنت اول ما عرفت هذا القِدَم من حالهِ قد سبق الى ظني ان تكون في خزائنهِ بعض كتب خطيّة قد حُفظت فيها من عهد بعيد كما تُرى في سائر الديارات القديمة فبينما انا أطالع في تاريخ البطاركة الانطاكيين للشماس بولس الحلبي اذ رأيتهُ يقول في معرض كلامهِ عن كتاب التيبيكون الصغير للقديس نيكن ما نصهُ بالحرف « اعلم يا اخي ان هذا الكتاب الثاني المذكور وجدتهُ في دير ستنا السيدة بمعمورة صيدنايا قديم جدًّا فجبتهُ معي الى حلب واحييتهُ لاني كتبت عليهِ نسختين جدد ولم اجد ولا سمعت ان لهُ في بلاد العربية نسخة ثانية ولكني وجدت في دير حمطورة من بلاد طرابلس كتابهُ الثالث الصغير ونسختهُ ايضاً »

وقد كان صاحب هذا التاريخ نظير والدهِ مولعاً بجمع اخبار الاولياء وآثار الاولين والتنقيب عن المؤلفات النادرة والمخطوطات التاريخية لايدّخر وسعاً في اقتنائها لنفسهِ اذا وجد لذلك سبيلاً او استحضارها اليهِ واحيائها بنقل بعض النسخ عنها حتى اذا قضى حاجتهُ منها ردّها الى مكانها بعد العناية بشدها واتقان تجليدها . فلم يدع بلداً الاَّ نبَش خباياهُ ولا ديراً الاَّ نقّب في زواياهُ كما تشهد بذلك مؤلفاتهُ التي شحنها بأقوال وشهادات لغيرهِ اقتطفها من هذه المخطوطات التي كانت تقع اليهِ ولما كان والدهُ مطراناً على حلب ففي سنة ١٦٤٢ وهي السابعة لاسقفيتهِ توجه معهُ لزيارة اورشليم في حاشية لهُ من الحلبيين فمروا بقارة وبيرود وزاروا قلايات مار قونون المحفورة

في الجبـل ثم كنيسة القديسة تقلا ودير القديس سرجيوس وباخوس في معلولا وانطلقوا الى حصن صيدنايا وقدموا دمشق عن طريق منين ثم ارتقى والدهُ السدة البطريركية سنة ١٦٤٧ فطاف معهُ ايضاً ابرشيتهُ الواسعة وزار دياراتها ديراً ديراً وفي جملتها دير القديس جرجس في قرية بلودان على مقربة من دمشق وهو اليوم خَرِب فوجد في دير صيدنايا منها خاصةً كما يؤخذ من كلامهِ السابق كتباً نادرة المثال ليس فقط في الدينيات ولكن في التاريخيات ايضاً لانهُ ذكر فيما بعد حاشية قال فيهـا « اعلم يا اخي اني وجدت في دير صيدنايا المعمور في كتاب قديم فيهِ هذه الاخبار التي اذكرها الآن » ونقل على الاثر طرفاً من اخبار الصليبيين وحروبهم من كتاب مخطوط لم يذكر مؤلفهُ

فلما قرأت هذه الحاشية صحّ عندي ما قدّرتهُ من وجود مكتبة في الدير المذكور وسألت عنها بعض الاخوان فقال لي لا اظن ان يكون قد بقي منها بقية صالحة لان معظمها قد أُحرق وما لم تلتهمهُ النار اجتاحتهُ الايدي بحيث لا تكاد تجد فيها اليوم ما يُبأَبهِ وذكر لاحراقها سبباً لم اصدقهُ لاول وهلة حتى اثبتهُ لي بعض ابناء الطائفة فتولاني منهُ عجبٌ شديد ومنذ ذاك الحين عقدت النية على الرحلة بنفسي الى الدير المشار اليهِ لاتحقق صحة ما وُصف لي واسمع بأذني من فم بعض الشهود اذا وجدوا ثَمّ خبر الحادثة كما تمت لذلك العهد

وبتّ اتوقع فرصة تسنح من الوقت حتى تهيأت لي رفقة خرجت تبتغي النزهة في فصل الربيع الاغرّ فسرنا في رياض راق سماؤها ورق ماؤها

تنثر فيها علينا يد الاشجار عقود الازهار حتى بلغنا الدير فلما حللنا فنآءهُ تلقانا حضرة الوكيل فيهِ على الرحب والسعة وذكرت لهُ الغاية التي قدمت لاجلها فوعدني ان يريني ما بقي من المكتبة في صباح الغد ثم غاب قليلاً وحضر فدعاني الى غرفة رئيسة الدير « الحاجّة سعدى هلال » فدخلت اليها وهي طريحة الفراش وبعد ان استقرّ بي الجلوس سألتها عن المكتبة واحراقها فقالت نعم اذكر ذلك كاني اشاهدهُ الساعة وان يكن قد مضى عليهِ ما ينيف على خمسين سنة وكنت يومئذٍ فتاة صغيرة عند جدّتي في زمن رئاسة « الحاجّة كاترينا مبيّض » ووكالة والد الخوري ميخائيل كك والشخاشيري وجبران الميداني وكانت المكتبة في ذلك العهد حافلة بالمخطوطات النادرة ولاسيما السريانية منها فانها كانت واقرة جدًّا حتى خشي الوكلآء من كثرتها ان تكون حجة بيد السريان يتقوون بها على اثبات حقوقهم على الدير (كذا) فاجمع رأيهم على اخراجها واتلافها تخلصاً من شرها فجمعوها ومعظمها من نفائس الكتب المخطوطة على رق الغزال وبدأوا يحرقونها تحت القناطر (واشارت الى مكانها) . ثم كرهوا ان تذهب نارها ضياعاً فجمعوها في فرن الدير لتكون وقوداً لهُ وخبزوا عليها خبزتين

فكدت اغيز حنقاً مما سمعت واطرقت واجماً لا انبس بكلمة فلما رأتني كذلك تنفست الصعدآء وقالت لا تنقضي حسرتي على تلك المخطوطات التي لو كانت قد بيعت في حينها لحصل منها للدير اموال هو اليها في احتياج ولكن ما نصنع بالجهل اذا كان صاحبهُ يجد عذراً لنفسهِ في اقتراف ما يسوّلهُ لهُ من ضروب الفظائع والمنكرات

نعم ايتها الحاجّة الرقيقة الفؤاد ان في احراق مكتبتي الاسكندرية وفارس لعذراً للعرب الذين لم يُقدموا على اعدامهما الا لاعتقادهم ان في تلك المصنفات ضلالاً وان في كتابهم هدًى منها او غنًى عنها . واما هؤلآء الوكلآء الاغبيآء فاي عذرٍ تجدين لهم وقد احرقوا تلك المخطوطات عمداً وتعصباً دون ان يأمرهم باحراقها الانجيل او يغنيهم عن مضمونها الوحي والتنزيل فلا تطلبي لهم عذراً في ما ليس لهم فيهِ عذر ولكن قولي بي جهراً كما قلتِ لي في السرّ ليت تلك الايدي الاثيمة شلّت قبل عدامها تلك الجواهر الكريمة وان شئتِ ازيد وحدي ليت النار التي فنت تلك الطروس قد تلهّمت بدلاً منها تلك النفوس فان من الاسفار ما تُبذل في صيانتهِ الاجساد بل من الآثار ما يقلّ في فدآئهِ دم الاكباد

ومما يزيد في هول هذا الخطب ان النار ظلت تشتعل اربعة ايام في لك المخطوطات خلا ما أُحرق منها تحت القناطر كما يؤخذ من قول لوكيل حين اقبلنا في صباح الغد نطوف غرف الدير . فلما انتهينا الى القرن راني موضعهُ واخبرني في معرض كلامهِ عن نفقات المطبخ ان الخَبزة عندهم تبتدئ مسآء الخميس ولا تنتهي الا يوم السبت ففهمت عند ذلك عنى قول الحاجّة لي « خبزوا عليها خبزتين »

ثم دخلنا المكتبة فجعلت أقلّب ما بقي من الكتب فيها فوجدت مضها في اليونانية في مجلدات قليلة وسائرها في العربية لا يكاد يُرى فيها غير نسخ الانجيل وتراجم القديسين وبعض الميامر بين مخطوط ومطبوع . وبينما انا انظر في اسمآء الكتب اليونانية عثرت على مجلدين مخطوطين في

السريانية قرأت في آخر احدهما انهُ من وقف « يوسف باسم شماس ابن القسيس يوحنا ابن قس ضومط من قرية الكفور من جبل لبنان من اقليم اطرابلس الشام » وفيهِ تاريخ سنة ستة آلاف وتسعماية وتسعة ثلاثين لآدم (سنة ١٤٣١ للميلاد وذكرُ كير اثناسيوس اسقف صيدنايا . فعجبت لهذا الاثر الباقي كيف اغفلهُ حضرات الوكلاء ولم يخشوا من بقآئهِ ذهابَ الدير . ثم التفت يسرةً فرأيت ثلاثة وصولات بثلاثة كتب قد استعيرت من المكتبة منذ سنة ١٨٨٦ فاستغربت هذه العناية في ضبط الكتب والحرص عليها من الضياع ونظرت في الامضآء لاقرأ اسم المستعير فرأيت توقيعاً خُيّل لي لاول وهلة انهُ ختم فتفرست فيهِ لأستوضح حروفهُ فاذا هو ... اثر اصبع فعلمت اذ ذاك كيف انتُهِب ما بقي من المكتبة بعد ما أُعدم منها في الحريق

ومن بقية هذه الكتب المنتهبة مخطوطات تُرى اليوم في المكاتب الاوربية قد كُتِب عليها في احدى حواشيها اسم صيدنايا اما لأَنها نُسِخت فيها واما لأَنها كانت قبلاً من كتب الدير . ومنها ايضاً مجلدات محفوظة في بعض المكاتب الشرقية في هذه الديار لا يبعد ان يكون قسم منها قد اختُلِس من عهد قريب على يد بعض زوار الدير بعلم من اصحابها او على غفلة منهم اذ لم يكن للمكتبة يوماً فهرست سُجّلت فيهِ اسفار الدير . ومما يشهد بذلك اننا لما دخلنا معبد الشاغورة دنوت لاتفرس في الايقونة فلم أرَ في مكانها الا طاقاً من فضة اشبه بصندوق قيل لي انها من ورآئهِ فسألت الوكيل هل يعرف لها تاريخاً يوثق بهِ فقال نعم عندنا ههنا كتاب خطيّ

رُويت فيهِ قصتها بالتفصيل واشار الى راهبة بجانبهِ ان تأتيني بهِ ففعلَتْ. فتصفحتهُ قليلاً فاذا هو مجموع اخبار ذكرت في آخرها قصة الايقونة والراهب الذي ابتاعها من اورشليم . فتطلبت عنوان الكتاب لاعلم من مؤلفهُ وتاريخ تأليفهِ فلم أرَ لهُ مقدمة يمكن ان يستفاد منها شيء فنظرت في خاتمتهِ فاذا هو من نسخ الحاجَّة تقلا غزال فقلت للراهبة التي اتتني بهِ أليس عندكم الاصل الذي أُخِذت عنهُ هذه النسخة فقالت هذه النسخة هي طبق الاصل تماماً فقلت لها ولكن للاصل قيمة ليست لهذه النسخة ولو اتيتني بهِ لاستدللت من النظر في بعض حواشيهِ أو من مطالعة الكتابة الملحقة بذيلهِ على زمن تأليفهِ أو اسم مؤلفهِ ومكانهِ لان معرفة هذه الامور ضرورية لتقويم الكتاب وتعيين مقدار الثقة بهِ . واذا ناقشكم غداً غريب في صحة تاريخ هذه الايقونة وقدمها فبمَ تحجُّونهُ أبشهادة هذه النسخة الحديثة ولا شيء يُثبِت لهُ سلامتها من التحريف والتصحيف لا سيما مع خلوّها من ذكر المؤلف وزمن التأليف . فقالت ان الاصل ليس عندنا ولكن اخذهُ بعض الزوار ... فخرجت عند ذلك وفي قلبي من الحسرة على ذهاب تلك الاسفار اضعاف ما أُشعِلَ فيها من النار